الفصل الثامن

الاستمرارية والتبدل
في الصادرات الإيبرية بعد سنة 1212

لقد ورد في أشعار «تشهير السياسة الانجليزية Libelle of Englyshe Polycye»[1] لائحة ببضائع إسبانيا (أي قشتالة) من خلال الأبيات الآتية:

ليعلم الناس جيداً أن الربح الأكيد في
السلع الآتية من خارج إسبانيا
والبضائع الطازجة هي...
التين والطيب والنبيذ والزبيب...
وعرق السوس، وزيت إشبيلية والحبوب...
وغميس خبز قشتالي أبيض والشمع المتين،
والصوف والحديد...
الزعفران والزئبق الذي أبحر به التجار الإسبان
ببراعة إلى فلندر...
وإلى بروجس وسوق معرضها الكبير..

(1) The Libelle of Englyshe Polycye. شعر يستخدم في القوى البحرية ed. G. 1436 Warner Oxford, 1926, p.4. exported from Portugal appears on.
وتبدو لائحة صغيرة مماثلة من البضائع المصدرة من البرتغال في ص 7.

لم تكن هذه القائمة الشعرية مجرد تمرين أدبي خيالي، إذ إن هذه المواد ظهرت مراراً في وثائق أخرى من العصر الوسيط من إنجلترا وفرنسا والبلدان المنخفضة. وقد أدرجت لوائح التعرفة الفلامندية والمحاكم الإنجليزية ذكر الصوف الإسباني (القشتالي عادة)، وتين غرناطة وزيت إشبيلية بينما روى الحجاج أو الرحالة التشوسر Chaucer حكايات أشاروا من خلالها إلى النبيذ الايبري والقرمز.

وهنالك المزيد من الإشارات، وهو ما كان عادياً في كتيبات الصادرات الإيبرية، في القرن الخامس عشر، حتى الوثائق البسيطة، تكشف عن التبدلات المهمة في الدور الإسلامي والدور المسيحي وذلك من خلال طبيعة المنتجات الإيبرية ونوعها. وليس من الممكن تفحص تفاصيل المتاجرة بين شبه جزيرة إيبريا والبحر الأبيض المتوسط وأوروبا في أواخر العصور الوسطى، ولا يدّعي هذا الفصل أنه سيغطي الكميات الواسعة من المصادر والأعمال الثانوية وثيقة الصلة بالموضوع. إنه يطمح إلى أمثلة جلية عن الاستمرارية والتبدل في ملامح الصادرات الإيبرية من 1250 حتى 1500 بهدف عرض آثار الفتح المسيحي، مع نتيجة التبدلات في الصناعة والبنية الاقتصادية، في التجارة الدولية خلال شبه الجزيرة.

لم يعد فك رموز السلم الزمني للتبدل مربكاً أو محيراً إذ إن الحس العام والوثائق يحددان الفترة بين 1212 و1248 كحد فاصل. فقد كان لاكتساب المسيحيين لأراضي المسلمين أثر عميق واضح في إنتاج السلع المحلية المعدة للتصدير. بينما كان التبدل في الإنتاج والطلب في الأماكن الأخرى في غرب المتوسط وشمال أوروبا قد سيطر على التنظيمات التجارية وثروتها. كما أثرت العلاقات السياسية القشتالية والأراجونية الخارجية على المشكلات التجارية، كذلك فعلت الأحداث خارج شبه الجزيرة. فكانت حرب المئة سنة والنزاع التجاري بين إنجلترا وفرنسا وفلندر، وتطورت صناعات النسيج الشمالية، كل ذلك أدى إلى تشعيب بيوع البضائع الإسبانية في الخارج. ودون أن نمضي بعيداً في تعقيدات السياسة والدبلوماسية الأوروبية، فإن الواقع الحقيقي الذي

أثرت فيه يرينا إلى أي درجة تبدلت فيه التجارة الإيبرية من التوجه الإسلامي إلى المسيحي في أواسط القرن الثالث عشر.

كما مثلت الانقسامات اللغوية والسياسية بين الممالك الإيبرية المسيحية وداخلها تبدلاً في أولويات المسائل والمشكلات بالنسبة للحكام الأندلسيين. ولأنه من الخطأ رؤية الأندلس مجتمعاً متجانساً، فقد سبق ووُحِّدْ سياسياً في عهد الأمويين والمرابطين والموحدين (رغم تمزقات الحروب الأهلية، والانشقاقات العرقية والدينية). وبالعكس، فقد كانت شبه الجزيرة مقسمة في القرن الثالث عشر بين الممالك الكبيرة، لقشتالة ـ ليون وآرجوان ـ كتلونيا، وكذلك ممالك صغيرة: نافار وبرتغال ـ دون الإشارة إلى غرناطة الناصرية. وعلى الرغم من ارتكاب الأفعال المشتركة لتنصير شبه الجزيرة لم يكن هناك ما يجمع الحكام المسيحيين، إذ كانوا مختلفين اختلافاً شديداً من خلال طموحاتهم ومصالحهم السياسية وتحالفاتهم الدبلوماسية.

وقد أدت التبدلات السياسية والانقسامات في داخل شبه الجزيرة إلى التبدلات الاقتصادية في يقظتهم. ولم يكن على السكان والتجار الإيبريين أن يتبدلوا في أوائل القرن 1200، بل كان الاقتصاد المحلي مجبراً على تعديل بنية السوق الزراعية والصناعية والتكيف مع شروط سياسية وسكانية جديدة. وفي النهاية، فإن الطبيعة الأساسية للبلاد لم تتغير، وبقيت قدرتها الإنتاجية نفسها، طالما أن تقنية المؤسسات، والمحاصيل والري قد أمكن الحفاظ عليها. ومن ثم، ففي بعض المناطق، بقيت الصادرات الأندلسية على حالها لم تتبدل، رغم انتقال البلاد من الحكم الإسلامي إلى المسيحي. ومن جهة أخرى، فإن المشكلات الزراعية والتصنيعية والتجارة المتفسخة بعد وصول المسيحيين قد شقت طريقاً للصادرات الجديدة القشتالية والأراجونية لمقابلة طلب الأسواق الأوروبية الناشئة. حتى في شمال شبه الجزيرة، نشأت صناعات جديدة في مناطق لم يطلها الحكم الإسلامي.

وفي غرناطة الناصرية، تلك الزاوية الأندلسية التي بقيت تحت سيطرة المسلمين حتى سنة 1492، فإن أحداث القرن الثالث عشر قد عدلت وبدلت

من مشكلات التجارة الدولية. وعلى الرغم من أن المنطقة ظلت تصدر كثيراً من المنتجات نفسها التي كانت تصنع في الماريا وملقا ومدن أخرى في الجنوب والتي اشْتُهِرتْ في القرن الحادي عشر والثاني عشر، فإن إنتاج الصناعات الأجنبية الجديدة بدأ بمنافسة سلع غرناطة. هذه المنافسة وضعت غرناطة في ظروف صعبة ومزدوجة، فمنذ وقت قريب استفادت المنطقة من الاقتصاد الأندلسي الواسع الذي سمح لها بتصدير مواد الرفاهية إلى الخارج وتحصيل كثير من القواعد الإنتاجية من خلال التجارة مع المناطق الأخرى في إسبانيا المسلمة. وعوضاً عن ذلك، أجبرت غرناطة من جديد على التوجه إلى شمال أفريقيا وأماكن أخرى من أجل القمح والضروريات اللازمة، والوصول إلى التكيف مع الجيران المسيحيين الشماليين. وعلى الرغم من أن غرناطة قد تمكنت من إنتاج الغذاء، كما أكد ابن خلدون، إلا أن المجهود كان مكلفاً[2]. ومن ثم، حتى في مواجهة المنافسة الخارجية ظلت المملكة الناصرية تنتج الحرير والفواكه التي كانت ملائمة جداً لمناخها، واتكلت على المنتجات الرئيسة المستوردة من الخارج.

واستمرت غرناطة في تصدير كثير من المواد الغذائية (وخاصة الزيت والتين) من المناطق الجنوبية والشرقية نفسها، والتي كانت تنتجها سابقاً سواء في المناطق التي أصبحت مسيحية أم التي ظلت مسلمة. ومن خلال أمثلة أخرى، فإن منطقة المصنوعات الواسعة الانتشار كما هي الحال بالنسبة للجلود القرطبية، استمرت ـ وهو ما يلفت النظر ـ بإنتاج تلك المواد خلال القرن الثالث عشر، وبيعت إلى الأسواق نفسها التي كانت قد تلقتها من قبل. وبصورة عامة، فإن جميع الباعة المسلمين في المشرق وشمال أفريقيا قد توجهوا إلى مصادر أخرى تاركين معظم الصادرات الإيبرية تذهب في البلاد المسيحية وتباع. وقد تلاشت المراجع عن المنتجات الإيبرية (أو تضاءلت) في النصوص العربية لتظهر في السجلات

(2) Ibn Khaldūn, The Muqaddimah, trans F. Rosenthal, New York, 1958, II, pp. 278-9.

الأوروبية فقط. ومن ثم، وخلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر، فإن تين ملقا الذي كان مرغوباً في بغداد صار ممتعاً في بروجس، وصار القرمز يباع في إنجلترا أكثر من مصر.

وبالإضافة إلى هذه الاستمرارية، بدأت الممالك الإسبانية المسيحية تُصَدِّرُ عدداً من السلع التي لم تعد تستورد (على الرغم من عدم معرفتها) عن طريق تجارة الأندلس الدولية. وقد شملت هذه الصادرات الجديدة الشب والحديد والنبيذ والرقيق المسلم وصوف المرينوس الناعم الشهير. وكان معظم هذه المواد ينتج في قشتالة الشمالية ويصدر من خلال الشبكة الجديدة المتطورة من الموانىء مثل ستاندر وكاسترو وأورديالس وغيرها على شاطىء باي بزكاي. وكان معظم هذه الصادرات الجديدة من المواد الخام التي تنقل إلى الخارج لتزود الصناعات الأوروبية بمواد الصناعة. وعلى الرغم من أن شبه الجزيرة قد تابعت تصدير عدد من السلع المصنعة مثل الخزف والورق والنسيج إلا أن ميزان الإنتاج قد تبدل لصالح المواد الخام.

وبالإضافة إلى هذه الاستمرارية في التصدير الجديد، يوجد صنف ثالث من البضائع، أعني تلك الصادرات الأندلسية السالفة الذكر التي اختفت من السجلات في أول القرن الثالث عشر. وسواء أكان إنتاجها وتصديرها قد توقفا، ونقلها قد تقهقر إلى درجة لم تعد تسجل، أم أن منعها من التداول قد أجبر التجار على استبعاد توثيق تجارة رائجة، ولأسباب مختلفة، صارت هذه المواد المختفية سلعة تجارية متطورة، وتحولت طرقها أو أنها لم تكن لتلقى المنافسة في عالم التجارة المسيحية، حيث صارت شبه الجزيرة مساعداً جنوبياً مرغوباً فيه. وكمثال على هذه الاختيارات الثلاثة كان الرقيق المسيحي لوقت قريب صادرة مسموحة من المنطقة المسيحية الجديدة، وكان الذهب السوداني إلى وقت قريب، يأتي خلال شبه الجزيرة، ولكن بعد انهيار سلطة الموحدين تمكن تجار البحر الأبيض المتوسط من الحصول عليه مباشرة من موانىء شمال أفريقيا، وصار خشب إيبريا غير ذي قيمة في أسواق أوروبا مثلما كان عليه في مناطق المشرق وشمال أفريقيا الفقيرة بالأخشاب (حيث

تردد المسيحيون بمنع بيعه). إن التقطع في تجارة الرقيق والذهب والخشب، سيناقش في نهاية الفصل لتبيان كيف أن الحظر على التجارة والسياسة الحكومية والتوجه الشمالي الجديد لشبه الجزيرة في العصور الوسطى قد دمر الدور الأندلسي القديم كمنطقة عبور غربية بين عوالم التجارة المسيحية والإسلامية. وعوضاً عن هذا الدور، فقد خدمت الموانىء في الأندلس وغرناطة حالياً كمحطات للتمون للعابرين مضائق جبل طارق بين مناطق التجارة المسيحية في البحر الأبيض المتوسط والأطلنطي.

الاستمرار في التصدير

زيت الزيتون

إن ذكر زيت إشبيلية في أشعار «تشهير السياسة الإنجليزية» السالفة الذكر، يرينا أن زيت الزيتون ظل صادرة إشبيلية مهمة لزمن طويل بعد السيطرة المسيحية على المدينة من قبل فرديناند الثالث صاحب قشتالة في سنة 1248. والواقع، يبدو أن Primera crónica general وهي أول حولية عامة لاقت صدى اطراء المؤرخين العرب الأوائل في وصف الزيت الممتاز وتوزيعه من منطقة شرف Sharaf[3]. حتى قبل سيطرة القشتاليين على المدينة كانت تجارة الزيت قد تحولت إلى أيد الجنويين بصورة واسعة كما هو مبين في امتياز ممنوح إلى جنوى من قبل فرديناد الثالث حيث سمح فيه للتجار الجنويين أن يستمروا في نقل زيت إشبيلية «إلى مناطق أخرى من العالم»، وكما كانت عادتهم «خلال الزمن الذي كانت فيه المدينة تحت سيطرة العرب»[4]، فمن غير الواضح متى بدأت تجارة الجنويين، خاصة وأنه لا

(3) Alfonso X, Primera crónica general de España. ed. R. Menéndez-Pidal , Madrid, 1906, reprint 1977, II, p.769.

(4) Caffaro, Annali genovesi di Caffaro e de suoi continuatori. ed. L.T. Belgrano, Genoa, 1890 m, pp. 183-84. وقد تجدد هذا الامتياز في 1251 C.Verlinden, "Italian Influence in Iberian Colonization," Hispanic American Historical Review 33, 1953, p.201.

توجد عقود عدلية مبكرة تذكر زيت الزيتون الإشبيلي. من جهة أخرى، ربما نُقل بعض الزيت من قبل الطليان في أوائل سنة 1160 حيث حافظت جنوا وپيزا على بيوت تجارية في إشبيلية. وتبين السجلات المتأخرة أنه على الرغم من أن الجنويين (أو أن المراكب الجنوية على الأقل) قد استمرت في دورها في السيطرة على نقل الزيت الأندلسي إلى البحر الأبيض المتوسط وشمال أوروبا، فقد تعامل التجار الطليان الآخرون والأراجونيون ببعض من هذه التجارة[5].

وفي القرن الرابع عشر مدح الحميدي الجغرافي المسلم زيت إشبيلية، قائلاً أن «صنف زيت الزيتون هذا، من أفضل الأصناف، [فالزيتون] يعصر جيداً، ولايزنخ، حتى بعد زمن طويل، وهو يصدر من [شبه الجزيرة] براً وبحراً إلى البلاد البعيدة»[6]. إن تعليق الحميدي هذا، يدل على استمرار توافر زيت الزيتون الإيبري في بلاد دار الإسلام، على الرغم من أنه كان يصل على ظهر المراكب المسيحية. وقد نقل التجار الجنويون والبندقيون زيت الزيتون من الأندلس إلى مصر في القرن الخامس عشر[7]. كما بيع زيت الزيتون الإشبيلي في أسواق البحر الأبيض المتوسط المسيحية في النصف الأول من القرن الرابع عشر عندما سجل بيجولوتي Pegolotti تفاصيل مكاييله

---

(5) J.A. Sesma Muñoz, "El comercio de exportación de trigo, aceite y lana desde Zaragoza a mediados del siglo xv," Aragón en la edad media, Zaragoza, 1977, pp.209-18.

(6) Ḥimyari, La Péninsule ibérique au moyen âge. ed. E. Lévi-Provençal, Leiden, 1938, p.101.

قدم القزويني معلومات مماثلة في كتابه آثار البلاد وأخبار العباد .Beirut, 1380/1960, p.497
كان العمري وبدر الدين الإيني وابن بطوطة من بين مؤلفين آخرين ذكروا تصدير الزيت الأندلسي إلى المغرب ومصر في أواخر العصور الوسطى. حول معلوماتهم ن، Arié, España musulmana. Barcelona, 1982, p.223; and A. Zeki, "Mémoire sur les relations entre l'Egypte et l'Espagne pendant l'occupation musulman," Homenaje a Don Francisco Codera. Zaragoza, 1904, p.464.

(7) E. Ashtor, The Levant Trade in the Later Middle Ages. Princeton, 1973, pp. 230, 267.

وسعره مقارنة مع أنواع أخرى من الزيت. وبالمثل فقد زود التجار الجنويون المعاصرون شيوس Chios بالزيت الاشبيلي[8].

وكما هي الحال بالنسبة لمنتجات إيبريا الأخرى، وبالرغم من مواصفات زيت إسبانيا العالية فقد واجه منافسة في عالم البحر الأبيض المتوسط. وكان هذا أقل أثراً في الواقع، في أسواق أوروبا الشمالية، حيث كان الزيت مطلوباً لصناعة النسيج والأصبغة كما أنه المادة الأولية في صناعة الصابون (كذلك غمس الزيت بالخبز، وهي العادة الجديدة الشعبية لاستهلاك الزيت القشتالي Whyte Castell sope). وقد أدرجت قوائم تعرفة بروجس Bruges في النصف الثاني من القرن الثالث عشر زيت الزيتون بين الصادرات من منطقة إشبيلية، وظهر الزيت ثانية في قائمة من سنة 1355 لمستوردات إسبانيا إلى بروجس[9]. وبالمثل فقد بينت سجلات من الموانىء الإنجليزية حركة نقل كبيرة لزيت إشبيلية والبرتغال خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ففي سنة 1309 مثلاً، وصل مركبان برتغاليان حاملان الزيت إلى ساوث أمبتون Southampton، وصُدرت وثيقة وصول بالسلامة لمركب إسباني في بريستول كان حاملاً الزيت والنبيذ والحديد في سنة 1434[10]، وفي أواخر القرن الخامس عشر (1475 ـ 1480) اشتكى تاجر جنوي في لندن أنه نقل شحنة من الزيت وسلع أخرى من إسبانيا ليبيعها في لندن أو في ساوث

(8) Francesco Balducci Pegolotti, La pratica della mercatura. ed. A. Evans, Cambridge, Mass., 1936, pp. 270-1; E. Otte, "El comercio exterior andaluz a fines de la edad media." Actas del II Coloquio de historia medieval andaluza: Hacienda y comercio. Sevilla, 8-10 de Abril, 1981. Seville, 1982, pp. 194-5. Otte discusses trade in Andalusian oil, pp. 194-205.

(9) J. Finot, Etude historique sur les relations commerciales entre Flandre et l'Espagne au moyen âge, Paris, 1899, p.303; L. Gilliodts-van-Severen, Cartulaire de l'ancien consulat d'Espagne à Bruges. Bruges, 1901, I, p. 15.

(10) L.F. Salzman, English Trade in the Middle Ages. Oxford, 1931, p. 412; E.M. Carus-Wilson ed., Overseas Trade of Bristol in the later Middle Ages. Bristol, 1937, p. 63.

أمبتون، ولكن ربان السفينة حوّلها إلى بريستول[11]. وبعد ذلك بسنوات قليلة، أي في سنة 1495 أجرى تاجر لندني عقداً لتسليم تسعة براميل من «زيت الزيتون الإشبيلي الطيب» وتعهد بأن تشحن على ظهر Anne of Hampton في الرحلة القادمة محملة بالسلع الجيدة إلى ميناء Saint Lucard Baramed على نهر إشبيلية[12].

التوابل والزئبق

وقد صُدر القرمز أيضاً من المناطق المسيحية القديمة والجديدة في شبه الجزيرة خلال طريق شقها إلى أسواق شمال وجنوب أوروبا. وقد هاجم القراصنة السندويتش Sandwich سفينة إسبانية في سنة 1228 ذكر أنها كانت تنقل مئة رطل من حبيبات القرمز في عنبرها، ذلك أن القرمز كان متوافراً في بروجس ومصدره قشتالة والأندلس والبرتغال في الوقت نفسه تقريباً[13]. وكان نقل الأصباغ الإيبرية إلى بروجس مفاجئاً، ذلك أن مراكز النسيج في البلدان المنخفضة كانت سوقاً جاهزة للملونات. وفي الواقع، وعندما وصلت شحنة أخرى من القرمز إلى سندويتش سنة 1337 في ظل ظروف أقل تأثيراً من شحنة 1228، ولم تبع جيداً، راح التاجر الإسباني الذي شحنها يبحث عن إذن بأخذها إلى برابانت Brabant أو هينولت Hainault أملاً في إيجاد سوق أفضل[14]. وقد نقل التجار الإسبان حبيبات الصباغ إلى بروجس في سنة 1355 على الرغم من أنهم كانوا مطالبين أن يدفعوا تعرفة مرتفعة نسبياً مقابل هذه الشحنة[15]. وقد استمر القرمز الإيبري متوافراً في آخر القرن الرابع عشر

---

(11) Carus-Wilson, Overseas Trade, p. 149.

(12) Amold. R. The Customs of London, otherwise called Arnold's Chronicle. London, 1811, p. 110 See also WR Childs, Anglo-Castilian Trade in the Later Middle Ages, Manchester, 1978, pp. 45,109-11.

(13) Calendar of Close Rolls, CCR, London, 1896-1938, 1227-31, p. 89; Finot, Etude, p. 303.

(14) CCR, 1333-7, p. 644.

(15) Gilliodts-van-Severen, Cartulaire, p. 15.

والخامس عشر عندما برز في وثائق انجليزية متنوعة، عدلية وأدبية. وظهر ذلك في آخر سياق، من خلال امتياز في حكايا كنتربوري Canter bury Tales (حوالي 1367) حيث ذكر مصادفة «حبيبات برتغالية» للصباغ، في حين ظهر حب الصباغ، خلال القرن الخامس عشر، في لائحة Libelle of Englyshe Polycye للصادرات الإسبانية والبرتغالية وفي جمرك لندن[16]. وفي سنة 1445، وصل قادسان (سفينتان شراعيتان) بندقيتان إلى لندن تحملان «حبيبات اسبانية» للصباغ grana hispanica pro pannos[17].

واستمرت العقود العدلية الجنوية في البحر الأبيض المتوسط تشير إلى القرمز الايبري، ويضاف إلى ذلك سجل من سنة 1253 لبيع «حب إسبانيا» يبين استمرار التجارة منذ القرن الماضي[18]. وقد ثبت هذا النقل التجاري الرائج مع جنوى في وثائق من سنة 1265 من مدينة مونبلييه، حيث سيطر فيها جيمس الأول صاحب أراجون المهيمن على العمل التجاري وعلى استخدام هذه الأصباغ[19]. وأدرج بيجولوتي فيما بعد حبيبات إسبانيا، grana di Spagna إلى جانب ستة أنواع أخرى من القرمز أتجر بها من قبل تجار في فلورنسا، وذكرت مراجع من محفوظات داتيني Datini achives 1383 - 1411 القرمز القادم من مورسيا وبلنسيا (رغم أن قرمز البروفانس أفضل كما كان يُظن)[20].

---

(16) G. Chaucer, "The Nun's Priest's Tale," Chaucer's Poetry. ed. E.T. Donaldson, New York, 1958, line 639, p. 514; Libelle of Englyshe Polycye, pp. 4,7; Arnold, Customs of London, p. 235. See also Childs, Anglo-Castilian Trade, p. 106.

(17) E. Ferreira Priegue, "El papel de Galicia en redistribución de productos andaluces visto a traves los archivos ingleses," Actas del II Coloquio de historia medieval andaluza: Hacienda y comercio. Sevilla, 8-10 de abril, 1981. Seville, 1982, p. 243.

(18) ASG Cart. 18/1, fol. 84v.

(19) M.G. Fagniez ed., Documents relatifs a l'histoire de l'industrie et commerce en France. Paris, 1898, I, pp. 261-62.

(20) Pegolotti, Pratica, p. 297; F. Melis, I trasporti e le comunicazioni nel medioevo. Florence, 1984, pp. 56-9.

وقد عثر على ذكر الزعفران والكمون الإيبري في السجلات المسيحية من القرن الثالث عشر والرابع عشر؛ ذكر الاثنان في قائمة بروجس على أنهما صادرتان اسبانيتان في القرن الثالث عشر. وكان الأول من أراجون والثاني من قشتالة، ولكن الكمون وحده الذي ظهر في لائحة بروجس سنة 1355[21]. وذكر بيجولوتي الاثنين كصادرتين إيبريتين[22]. أما في انجلترا فقد تنافس الزعفران الإسباني مع آخر ينمو محلياً. أما الكمون فكان مستورداً بالتأكيد. وتقول شكوى قدمت في سنة 1294 تتعلق بشحنة من «ثلاثين كيساً من الكمون» بأنها تعود لتاجر إسباني في سندويتش، بينما يذكر سجل آخر من المدينة نفسها مؤرخ سنة 1305 شحنة أخرى من الكمون الإسباني[23].

وذكر الزئبق في لائحة «تشهير السياسة الانجليزية» مما يدل على استمراريته، خاصة وأن مناجم المعدن Almaden شمال قرطبة قد استثمرت من قبل الحكام المسيحيين كما كان الحال في القرون الباكرة. وقد نقل الزئبق خلال إشبيلية إلى أسواق المتوسط وانجلترا وفلندر خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر[24]. وخلال القرن الخامس عشر، أعطت منحة ملكية من تاج قشتالة احتكار تجارة الزئبق إلى التجار الجنويين[25].

الجلود والفراء

وقد استمر الجلد القرطبي وغيره من الجلود المشغولة والملونة

---

(21) Finot, Etude, p. 303; Gilliodts-van-Severen, Cartulaire, p. 15.

(22) Pegolotti, Pratica, pp. 294, 376.

(23) C.C.R. 1288-96, p. 365; Salzman, English Trade, p. 414; Childs, Anglo-Castilian Trade, p. 124.

(24) F. Perez Embid, "Navigation et commerce dans le port de Séville au bas moyen âge," Le moyen âge 75,1969, p. 489; Finot, Etude, p. 303; Gilliodts-van-Severen, Cartulaire, p. 15; Salzman, English Trade, p. 411; Childs, Anglo-Castilian Trade, pp. 119-20.

(25) J. Heers, "Les hommes d'affaires italiens en Espagne au moyen âge: Le marché monétaire." Fremde Kaufleute auf der iberischen Halbinsel. ed.H. Kellenbenz, Cologne-Vienna, 1970, p. 75.

كصادرات ايبرية مهمة خلال القرن الثالث عشر وما بعده. وربما نقل بعض الجلود إلى دار الإسلام، حيث ذكر القزويني (توفي 1283) وابن الخطيب (توفي 1374) صادرات الجلد الإيبري[26]. وكما كان الحال قبلاً، كان القرطبي مرغوباً في الأسواق المسيحية حيث كانت تتوافر جلود ليست من تقليد إيبري. وعلى الرغم من هذه المنافسة، فمن الواضح أن صناعة الجلد الإسباني وتجارته قد ازدهرت. وقد فرقت قوائم التعرفة القشتالية والأراجونية بين القرطبي الأحمر والأبيض، لكن قيمة الفرق ازدادت في القرن الثالث عشر عندما فرضت المكوس على الشحنات المنقولة على طول نهر إيبرو خلال عهد الفونسو الثاني 96 - 1162، متضمنة عشرين سوليدي Solidi فُرضت على القرطبي الأبيض والقرمزي cordovans blanchs o vermels وكانت الضريبة واحدة على الاثنين[27]. وفي سنة 1238 أدرج عقد تعرفة في بلنسيا وصلت إلى ستة دنانير deniers بالدرزينة من القرطبي الأبيض، وضعف المبلغ على الأحمر. وهكذا فإن التعرفة المرتفعة هي إشارة ارتفاع السعر، وندرة المادة أو كونها مستوردة، هذا التعارض ينشأ من واقع أن الجلد القرطبي الأبيض كان ينتج محلياً فيما يعرف كأراضٍ أراجونية، بينما ظلت أنواع الأحمر تأتي من الجنوب الإسلامي أو من قشتالة والجنوب المسيحي حديثاً. وفي سنة 1240 ذكر عقد تجاري واحد على الأقل من فيتش Vich جلداً «بلنسياً» قرطبياً، وخلال القرن القادم صارت بلنسيا مشهورة في إنتاج الجلد الأبيض[28]. وقد أشار بيجولوتي إلى بيع جلد قرطبي من بلنسيا

---

(26) ابن الخطيب Qazwini, Athar, p. 555; Ibn Khâtib, Mufakarat Malaqa wa Sala. ed. A.M. al-'Abbadi, Alexandria, 1958, p. 59. مفاخرات ملقا وسالا

(27) M. Gual Camarena, "Peaje fluvial del Ebro siglo XII," Estudios de edad media de la Corona de Aragón 8,1967, p. 167; Fori antiqui valentiae. ed. M. Dualde Serrano, Madrid-Valencia, 1950-67, pp. 282-3. من أجل بلنسيا انظر إلى وثائق مماثلة في 1240 المجموعة من قبل M.D. Sendra Cendra, Aranceles aduaneros de la Corona de Aragon siglo XIII, Valencia, 1966, pp. 22-3, 29, 38.

(28) A. Garcia, "Contractes comercials vigatans de principis del segle XIII," Ausa, Vich 43, 1963, p. 329; Gual Camarena, "Peaje," p. 182.

وبرشلونة في موانئ جنوب فرنسا في باكر القرن الرابع عشر، وذكر وجود «جلد قرطبي» في البندقية ولكنه كان مجهول المنشأ[29].

وكان الجلد القرطبي مرغوباً في شمال أوروبا، كما هو مبين من خلال ذكره من قبل جون جارلاند في باريس John Garland منذ سنة 1220 وظهور الجلد القرطبي القرمزي في لوائح تعرفة باريس مؤرخة في (1272 و1297)[30]. وبطريقة مماثلة، تصف خرافة فرنسية من القرن الثالث عشر غندورين متأنقين يلبسان: حذاءين من الجلد القرطبي الخالص وسروالين ممتازين من بروجس»[31]. وعلى الرغم من أن هذه الأدلة لا توضح الأصل الإيبري لها، فمن المحتمل إن جلد هذين الحذاءين جاء من شبه الجزيرة إلى فرنسا عن طريق بروجس وهي مصدر السروالين. لقد كان الجلد القرطبي من قشتالة وليون ونافار متوافراً باستمرار في فلندر خلال القرن الثالث عشر[32]. وبعيداً عن ذلك، تتضمن فاليش مابينوجيون Welsh Mabinogion إشارة إلى أحذية مصنوعة من جلد قرطبة المذهب، مما يدل على أن هذا النموذج من الجلد كان مألوفاً في أقصى بريطانيا[33]. وكان الجلد القرطبي متيسراً ولا

---

(29) Pegolotti, Pratica, pp. 225, 141. وظهرت أنواع أخرى من الجلد المتاجر به في المتوسط في:

Datini archives, Melis, I traspori, pp. 54-6. وفي Pegolotti, Pratica, pp. 124, 270,

(30) A. Scheler, ed., "Trois traités de lexicographie latine du XIIe au siècle," Jahrbuch für romanishe und englishe Literatur 6,1985, p. 296; D. D'Arcq, "Tarif de marchandises qui se vendaient à Paris a la fin du XIIIe siècle," Revue archéologique 9,1852, p. 227.

(31) A. de Montaiglon ed., Recueil general et complet des fabliaux des XIIIe et XIVe siècles. Paris, 1872, I, p. 1. ذُكر هذا المقطع من قبل R. van Uytven, "Cloth in medieval literature of Western Europe," Cloth and Clothing in Medieval Europe: Prof. E.M. Carus-Wilson. London, 1983, p. 155. دراسات في ذكرى

(32) Finot, Etude, pp. 302-3. الجلد القرطبي بيع في بروجس في سنة 1355 أيضاً Gilliodts-van-Severen, Cartulaire, p. 15.

(33) Mach vab Mathonwy. edition, translation, and commentary by W.J. Gruffydd, Cardiff, 1928, p. 20. =

شك في جنوب انجلترا في سنة 1228 عندما وصفت وثيقة مركباً إسبانياً هوجم من قبل القراصنة قرب سندويتش مُدْرجاً نوعاً مدهشاً من سلع الجلد منقولة في عنبره. ولم يكن القارب سيء الحظ يحمل كمية كبيرة من الجلد القرطبي (التي تلف بعضها بسبب مياه البحر، وهي خطر دائم) وحسب، بل كان يحمل جلود الأرانب والنمور والحَمَلْ والجدي وكثيراً من الجلود غير المدبوغة[34]. وبعد ذلك ذكرت Libelle of Englyshe Polycye القرطبي بين صادرات إلى البرتغال (ويبدو أنها لم تكن قشتالة)[35].

وقد كثرت المراجع عن أنماط أخرى من الجلد الإسباني والجلود المباعة في أوروبا في القرن الرابع عشر والخامس عشر، ولكن جلد الأرنب فقط بقي قليل البيع منذ العهد الإسلامي الباكر. وقد ذكر جلد الأرنب كصادرة أندلسية من قبل الزهري في القرن الثاني عشر، حيث ظهر في بورتازجو معاصرة في قشتالة وأراجون. وبعد منتصف القرن الثالث عشر، ظهر في وثائق التجارة الإيبرية إلى إنجلترا والبلدان المنخفضة. ولم ينقل إلى سندويتش في سنة 1228 وحسب، بل وصل جلد الأرنب إلى لندن، حيث سلم التجار القشتاليون الغاليس/الغاليون شحنة من ستة آلاف من الجلود اللامعة Pellium, cuniculorum في سنة 1237، وإلى بروجس من نافار في وسط القرن الثالث عشر[36]. وكان العواهل يحاولون من وقت لآخر، الحد من تصدير السلع الإيبرية، وقد امتد هذا الإجراء ليشمل جلود الأرنب في

= كلمة cordwal بلغة Welsh تلتقي مع cordwain الانجليزية واشتقاقات أخرى، ويؤرخ نص هرجست (Red Book of Hergest) في 1400.

(34) C.C.R. 1227-31, p. 89. The Close Rolls and Fine Rolls C.F.R.

مليئة بالمراجع عن شحن الجلود من إسبانيا، ن:

C.C.R. 1333-7, p. 644; C.F.R. 1337-47, p. 5; C.C.R. 1337-9, p. 85. See also Salzman, English Trade, pp. 414-15, and Childs, Anglo-Castilian Trade, pp. 136-7.

(35) Libelle of Englyshe Polycye, p. 7.

(36) C.C.R. 1227-31, p. 89; C.C.R. 1234-7, p. 479; Finot, Etude, pp. 302-3.

آخر القرن الثالث عشر[37]. وكان سبب القيود غير معروف، خاصة وأن هذه البضاعة غير مؤذية، ولكن هذا المنع لم يدم واستمرت تجارة جلود الأرنب في القرن الرابع عشر. وفي سنة 1337 مثلاً نقل التجار الإسبان «خمسين بالةٍ أو رزمة من جلود الأرانب البرية» إلى سندويتش وكان قد ذكر جلد coninen بين السلع الإسبانية التي صدرت إلى بروجس في سنة 1355[38]. وذكر بيجوليتي في الوقت نفسه جلود أرانب للبيع (ربما لتجار أجانب في مالوركا وإشبيلية) [39].

الفواكه المجففة

كانت الثروة الناتجة عن تصدير التين المجفف وغيره من الفواكه حاسمة في أهميتها للاقتصاد في غرناطة الناصرية في القرن الرابع عشر. «أيها التين» هكذا بدأ يكتب عنه أحد شعراء ملقا كاعتراف بأهمية مصدر الثروة هذه. «لقد أبقيت على حياة ملقا، وبسببك تصل المراكب إلى [هذه المدينة]» [40]. وقد احتفظ تين ملقا بسمعته العالية لجودته ولكونه مرغوباً في الأسواق المسلمة والمسيحية وأصبحت أرباح هذه التجارة ذات قيمة زائدة إذ إن حركة تجارة الحرير في غرناطة قد تداعت. وقد كتب الجغرافي العمري (متوفى 1348) أن تين ملقا صُدّر إلى جميع جيران الأندلس، وادعى الحميري أنه «نقل إلى مصر وسورية والعراق، وربما بعيداً إلى الهند، لأنه كان أطيب وألذ تين» وبطريقة مماثلة ذكر ابن بطوطة والمقري

---

(37) J. O'Callaghan, The Cortes of Castile-Leon, 1188-1350, Philadelphia, 1989, pp. 189-90.

(38) CCR 1337-9, pp. 85-6; Gilliodts-van-Severen, Cartulaire, p. 16.

حول تجارة الفرو في إنجلترا وفرو الأرانب ن:

E.M. Veale, The English Fur Trade in the Later Middle Ages. Oxford, 1966, especially pp. 209-14.

(39) Pegolotti, Pratica, pp. 124,270.

(40) Ibn Battuta, Tuhfa al-nazar fi ghara'ib al-amsar. Cairo, 1934, p. 291.

ابن بطوطة «تحف النظر في غرائب الأمصار».

تصدير التين من ملقا إلى جميع بلدان الغرب والشرق منتشراً بعيداً حتى الصين[41]. وكانت عناقيد العنب ممتازة بحجمها وشحم عنبها، ولذا فقد صدرت. وكان عنب المربالي من مرابيلا Marabella والمنكبّي Munakabbi من المنقار Almunecar وجميعها مرغوبة. كفواكه إلتشه Elche وملقا ومناطق أخرى من غرناطة[42]. ورأى ابن بطوطة أن «العنب يباع في أسواق [ملقا]»، وذكر القزويني أن المصدّر منه من نبيلا Niebla لم يكن له نظير في العالم[43].

لقد كان التين والفواكه المجففة الأخرى إحدى الصادرات القليلة المنتظمة والرائجة من غرناطة المسلمة إلى أوروبا، على الرغم من أن مناطق اخرى (بما فيها إشبيلية وقرطبة وكتلونيا ومالوركا/ قا) بدأت بتصدير الفواكه في وسط القرن الثالث عشر[44]. وكان التجار المسيحيون تاجروا بالتين الإيبري في القرن الحادي عشر، عندما سجل كاتب عدل جنوي شحنات من التين fegie نقلت من قبل تجار جنويين (ولكن إلى سبتا كأبعد حد) في العامين 1162 و1179[45]. وبعد ذلك بقليل كتب المؤلف العربي الشقندي (بين 1199 ـ 1212) أن «المسلمين والمسيحيين قد صدروا [التين من ملقا] بتلك الكميات الكبيرة بحيث لم يكن باستطاعتهم المتابعة»[46]. وفي أواخر القرن الرابع عشر، تباحثت عائلة سبينولا Spinola الجنوية مع الحكام

---

(41) 'Umari, Masalik al-absar. trans. M. Gaudefroy-Demombynes, Paris, 1927, pp. 240-1; Himyari, Peninsule, p. 178; Ibn Battuta, Tuhfa, p. 291; Maqqari, Analectes sur l'historie et la littérature des arabes d'Espagne. ed. R. Dozy, Leiden, 1855-60, I, p. 95.

العمري، مسالك الأبصار.

(42) J. Vallve, "La agricultura en al-Andalus," Al-Qantara 3,1982, pp. 289-90.

(43) Ibn Battuta, Tuhfa, p. 291; Qazwini, Athar, p. 555.

(44) Finot, Etude, p. 30; Pegolotti, Pratica, p. 123. .

(45) H.C. Krueger. "The Commercial Relations between Genoa and North-West Africa in the Twelfth Century." Ph.D. Dissertation, University of Wisconsin, 1931, p. 121.

(46) Maqqari, Analectes, II, p. 148.

الناصريين للحصول على امتياز السيطرة على تصدير الفواكه المصدرة من موانئ غرناطة[47]. وكان بعض الفواكه المجففة من غرناطة قد بيع داخل شبه الجزيرة، كما تبين في لوائح تعرفة سنة 1252 من طرطوشة التي خصصت مكساً من ثلاثة دنانير Denarios على كل سلة تين من ملقا أو أليكانته Alicente والشيء نفسه على سلة كبيرة Sporta grasse من التين من دينيا[48]. وكذلك وصلت شحنات اللوز والزبيب والجوز إلى موانئ أوروبا الشمالية محمولة على مراكب ايبرية وإيطالية[49]. وقد نقل دومنجو جونسلافس Domingo Gunslaves وهو تاجر من لشبونة خمسين كيساً من اللوز ومئة وتسعة عشر من التين إلى سندويتش في سنة 1299. وقبل ذلك بعشر سنين باع تاجر إسباني على ظهر مركب في بورتسموث Portsmouth كمية من الزبيب والتمر والرمان والليمون والبرتقال إلى مندوب الملكة «النور Eleanor» صاحبة قشتالة التي ربما كانت مشتاقة لتذوق حلاوة وجمال بلادها[50]. وبطريقة مماثلة بينت الوثائق الإنجليزية وصول سفينتين ايبريتين تحملان شحنات من التين والزبيب في أول القرن القادم[51]. وليس من الضروري القول أن الإنجليز لم يكونوا المستهلكين الشماليين الوحيدين التواقين إلى

---

(47) J. Heers, "Le royaume de Grenade et la politique marchande de Gênes en occident, XVe siècle," Le moyen age 63,1957, p. 108; Otte, "Comercio exterior," p. 223; E.J. López de Coca Castañer, "Comercio exterior del reino Granada," Actas del II Coloquio de historia medieval andaluza. Hacienda y comercio. Sevilla, 8-10 de Abril, 1981. Seville, 1982, p. 344.

(48) Sendra Cendra, Aranceles, p. 61.

(49) F. Melis, "The Nationality of Sea-Borne Trade between England and the Mediterranean around 1400," Journal of European Economic History, 4,1975, p. 376.

(50) Salzman, English Trade, pp. 412-13.

(51) يذكر سالسمان مراكب برتغالية تنقل الفواكه المجففة إلى ساوث أمبتون في سنة 1309.

English Trade, p. 412; Patent Rolls, C.P.R. 1334-8, London, 1895,

تقول الشكوى أن 300 زوج من التين والعنب قد سرقت من مركب إسباني في سندويتش في سنة 1337.443.p .

وانظر حول التين Childs, Anglo-Castilian Trade, p. 125.

التين الإيبري، فقد وصل في سنة 1350 أربعون مركباً إسبانياً (كثير منها محمل بالفواكه المجففة) إلى بروجس حيث وضعت التعرفة على الزبيب والتين[52]. وبعد ذلك، ذكر سجل من سنة 1395 تجاراً انجليزاً يشحنون التين والزبيب إلى النورماندي من الجرف Agarve[53]. وقد استمر نقل الفواكه الإيبرية إلى ما وراء بريطانيا في القرن الخامس عشر، كما تبين وثائق الخلافات التي نشبت بين التجار في بريستول حول شحنة من «بعض أطنان الفواكه المدعوة تين وزبيب Tonnes of ffrute called ffyges and resans» منقولة من جنوب قشتالة في سنة 1470[54].

الخزف والفخار

إن أدلة پيزا بتشيني وهي أفضل مخبر لتفحص انتشار الفخاريات في عالم البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى، ترينا أن إنتاج الفخار الإيبري وتصديره قد استمر منذ الدور الإسلامي إلى المسيحي. وقد لاحظت اللوائح تلو اللوائح من شبه الجزيرة إن «امتداد فترة تحول [صناعة] الفخار في الأندلس... تؤكد [هي الأخرى] على استمرارية هذه الحرفة، على الرغم من الهيجان السياسي». وكما ذكرت تلك الملاحظات، فقد استمر إنتاج الفخار في قرطبة ومدن الجنوب الأخرى، للأنماط السابقة نفسها، بينما حافظ الناصريون في غرناطة والأندلس على تصدير الفخاريات خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر، وبالعكس، ظل إنتاج الفخار في شمال قشتالة غير متطور[55]. وقد كان الموقف مختلفاً في مملكة أراجون، وعلى الأقل في باليريك، حيث نوه روسيللو بوردوي Rossello Bordoy إلى «انقطاع تام» في

(52) F. Rorig, The Medieval Town. Berkeley, 1967, p. 81; Gilliodts-van-Severen, Cartulare, p. 15.

(53) C.CR. 1392-6, p. 324.

(54) Carus-Wilson, Overseas Trade, pp. 147-8.

(55) F.C. Lister and R.H. Lister, Andalusian Ceramics in Spain and New Spain. Tucson, 1987, p. 72.

تقاليد الفخاريات الإسلامية إثر الفتح[56].

وتوحي المعلومات من بتشيني وأماكن أخرى بأن الفخاريات الإيبرية قد تدنت في أواخر العصور الوسطى ورغم ذلك فإن الأشكال الجديدة وتقنية التزجيج قد تطورت في هذا الدور. ومما يلفت النظر هنا هو ظهور الميوليكا Maiolica، وهو نوع من الخزف الملمح الذي أصبح شعبياً في القرن الرابع عشر والخامس عشر. وطبقاً لما ذكره بعض العلماء فإن ميوليكا مشتقة من اسم ملقا Malaga على الرغم من أنه كان يُعاد إلى مالوركا Mallorca بصورة عامة، وكان في كل الأحوال، مقلداً على نطاق واسع[57]. وكانت ملقا مشهورة بفخارياتها (كما بتينها)، وقد ظهر خزف هذه المنطقة محافظاً على سمعته وشهرته في القرن الخامس عشر. واتّجر بالأواني الفخارية لهذه المدينة في أسواق المسلمين والمسيحيين، كما أشار إلى ذلك عدد من المؤلفين المسلمين المتأخرين. وقد ذكرت قدور ملقا وصحونها في نصوص بروفنسال خلال القرن الثالث عشر[58]. وشقّت فخاريات إيبريا طريقها إلى إنجلترا، حيث أن عدداً من الصحون، وصحون الفناجين والجرار قد ابتيعت من مراكب إسبانية في سنة 1289 كما جاء مركب محمل بالصحون والأباريق «الملكية» إلى ساوث أمبتون في أوائل القرن التالي. وذكر مرجع متأخر أن

---

(56) G. Rosselló Bordoy, "Mallorca: Comercio y ceramica a lo largo de siglos X al XIV," II Coloquio internacional de ceramica medieval en el Mediterraneo occidental, Toledo, 1981. Madrid, 1986, p. 199.

(57) U. Scerrato, Gli arabi in Italia. Milan, 1979, p. 441.

(58) Himyari, Peninsule, p. 163; Qalqashandi, Subḥ al-a'sha fi kitābāt al-insha.

القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشا،

trans. L. Seco de Lucena, Valencia, 1975, p. 26; Ibn Battuta, Tuhfa, p. 291; Maqqari, Analectes, 1, p. 96, 123. See also B. Martinez Caviro, La loza dorada. Madrid, 1983.

من أجل مراجع بروفنسال ن:

M. Jenkins, "Medieval Maghribi Ceramics." Ph.D. Dissertation, New York University, 1978, p. 183.

«جرار الملك» متوافرة في لندن في سنة 1462[59].

انحسار صناعة الحرير الأندلسي

إن المصادر عن الحرير ومنسوجاته، وهي الصادرات البارزة لإسبانيا المسلمة، قد انحسرت واختفت بعد أوائل القرن الثالث عشر. ومع ذلك فقد استمر إنتاج الحرير في غرناطة الناصرية حيث استمرت سفوح البوجاراس Alpujarras بزراعة شجر التوت، وبعد وقت ليس بالقصير، سيطر حرير الأندلس على أسواق البحر الأبيض المتوسط الغربية كما كان الحال في القرن الحادي عشر والثاني عشر. وظل بعض الحرير الغرناطي يتاجر به في دار الإسلام، وقد ذكر المقريزي قطع حرير أندلسي هي «السقلطون» في القرن الثالث عشر في القاهرة[60]. وأعلن ابن سعيد (توفي 1286) أن ملقا ومورسيا والماريا، جميعها أنتجت «الحرير المذهب (البروكار) الذي أدهش الناس في المشرق بجمال تشغيله» إلا أن هذه الملاحظة ربما أخذت من مرجع سابق[61]. ومما هو جدير بالملاحظة، من جهة الطلب المسيحي أن كتيّب بيجولوتي الشامل لبضائع البحر الأبيض المتوسط لم يذكر الحرير الإسباني، ومع ذلك يسجل المؤلف كثيراً من المنوعات الإقليمية، وخاصة من المشرق والأناضول. وبالعكس، فإن محفوظات داتيني، تتضمن أدلة على seta spagnola (الحرير الإسباني) مما يوحي أن بعض الحرير الخام قد وصل من شبه الجزيرة إلى البندقية ولوتشا Lucca ومراكز نسيج أخرى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر[62]. ولعل جنوى كانت أهم سوق إيطالية للحرير الناصري في العصور الوسطى. ومنذ ذلك الوقت تمرس

---

(59) Salzman, English Trade, pp. 415-16. يؤرخ سالسمان سجلات ساوث أمبتون في 1304.
وقد ذكر أيضاً من قبل أ. لان، A. Lane "Early Hispano-Moresque Pottery: A Reconsideration.". Burlington Magazine 88, 1946, p. 249, الذي يؤرخ في 1303.

(60) Maqrizi, Khitāt, Bulaq, 1270/1853, I, p. 427.

(61) Maqqari, Analectes, p. 123.

(62) Melis, I trasporti, pp. 58-9, 171.

التجار الجنويون في تجارة غرناطة وتمكنوا من تأمين حاجات الحائكين الجنويين. وقد وصل الحرير الأندلسي إلى أجزاء أخرى من أوروبا، إلا أن المراجع قليلة بعد وسط القرن الثالث عشر مقارنة مع معلومات القرن السابق. ولم يتغن الشعراء الفرنسيون طويلاً بالحرير العمري Soie d'Aumarie، فقد صار لديهم نظيره في القرن الثالث عشر. وظهر حرير غرناطة في لوائح تعرفة بروجس في القرن الثالث عشر، وما هو ملاحظ أن الإنتاج الناصري وحده لم يذكر كصادر من مناطق شبه الجزيرة الأخرى[63]. وكان بعض الحرير يأتي إلى بروجس من غرناطة في القرن التالي مع شحنة وصلت إلى ميناء سوين Swin في سنة 1350[64]. كما كان النسيج الحريري الأندلسي متوافراً في إسبانيا المسيحية، كما تبين من خلال وجوده في القبور الملكية في سانتا ماريا لا ريل دو لوس هولجاس Santa Maria la Real de los Huelgas في بورجس Burgos.

وباستثناء هذه الأمثلة القشتالية والحرير المذهب الأندلسي المذكور في المصادر العربية، فإن بعض الأدلة من العصر الوسيط تخص الغزل الخام. وزيادة على ذلك تشير المعلومات أولاً إلى أن الحرير الأندلسي سرعان ما تمتع بالأبهة والسيطرة الاقتصادية سواء في أوروبا أم في البحر الأبيض المتوسط، التي كان يتمتع بها يوماً. وثانياً، توحي بأن حجم صادرات غرناطة من الحرير قد تضاءل، وثالثاً، تشير إلى تبدل من النقل المختلط للحرير الخام والمنسوج إلى تركيز على المواد الخام.

وكانت التبدلات في صناعة الحرير الأندلسي وتصديره ملفتة للنظر، ولكن لم تكن عسيرة على الفهم، ذلك أن مصادر الحرير والطلب عليه قد تبدّلا في البحر الأبيض المتوسط وأوروبا في أوائل القرن الثالث عشر. وكانت المنافسة إحدى أهم العوامل في تقهقر الحرير الأندلسي. وقد بدأت

---

(63) Finot, Etude, p. 303.

(64) Rorig, The Medieval Town, p. 81.

مناطق البحر الأبيض المتوسط البحرية، وخاصة جنوب إيطاليا وصقلية، بإنتاج حاجتها من الحرير في باكر القرن العاشر، ولكن الصناعة الطليانية توسعت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر لتلبية حاجات حائكي الحرير المحليين[65]. وكانت مناطق إسبانية المسيحية من منتجي الحرير في القرن الثاني عشر ولكن المحصول لم يكن منافساً حتى القرن الخامس عشر[66]. وكانت المعاهدات اللاتينية مع البيزنطيين قد زادت من إمكانيات وصول الغرب إلى الحرير البيزنطي في شرق المتوسط في القرن الثاني عشر. وفي الوقت نفسه، فإن ظهور المنغول وإقامتهم «pax mongolica السلام المنغولي» قد فتح طريق الحرير الشهير، وسمح للتجار الغربيين الحصول على الحرير من الصين ومن مراكز الإنتاج في العالم الإسلامي. ويمكن تلمس مشكلة مماثلة في بلاد المسلمين، حيث لم يعد التجار يتطلعون إلى الغرب الإسلامي من أجل الحرير، لأنهم تمكنوا من الحصول عليه إما من الصين أو من مكان قريب من بلادهم.

وهناك غزول ومنسوجات اخرى ظهرت منافسة للحرير الخام الأندلسي والحرير المذهب أو المطرز Brocardes في أواخر العصور الوسطى، وخلال القرن الخامس عشر. حتى الأسواق الإسلامية في شرق المتوسط فضلت استيراد المنسوجات غير الحريرية من أوروبا على استيراد الحرير من الغرب الإسلامي. وإن التوجه الشمالي الجديد للتجارة الإيبرية في القرن الثالث عشر بدأ من خلال كمية المصنوعات في البلدان المنخفضة وفرنسا وإيطاليا والتي بدأت تُستورد إلى شبه الجزيرة. حيث كان الأندلس مصدراً للحرير الإسلامي

(65) R.S. Lopez, "China Silk in Europe in the Yuan Period," JAOS 72,1952, p. 72; M. Lombard. The Golden Age of Islam. Oxford, 1975, p. 184.

(66) E. Morral i Romeu and A. Segura i Mas. La seda en Espana: poder y realidad. Barcelona, 1991, pp. 62-7. لقد ذكر شجر التوت والحرير المنسوج في كتلونيا في القرن الحادي عشر. F. May, Silk Texiles of Spain, 8th-15th century. New York, 1957, pp. 10-11 and in Toledo in 1192 A. Gonzalez Palencia, Los mozarabes de Toledo en los siglos XII y XIII. Madrid, 1926, I, p. 171.

إلى أوروبا. وصار المستهلكون الإيبريون الآن تواقين إلى الأصواف والكتان الفلامندي والإيطالي. وفي سنة 1234، منح جيمس الأول صاحب أراجون امتيازات خاصة لتجار ثياب محليين في وثيقة ذكرت أقمشة من انجلترا وفرنسا، ولم تذكر شيئاً من الجنوب المسلم. وبعد ست سنوات، منح امتيازه leuda إلى لائحة مصنوعات حيكت في جينت Ghent وايبرس Ypres ورايمس Rheims وناربون Narbonne ومونبلييه وميلانو وبرشلونة ومدن أوروبية أخرى، مع اشارة قصيرة ووحيدة لنسيج إسباني tela hispanie[67]. وكانت مصنوعات المدن الأوروبية الشمالية متوافرة في أسواق قشتالة بصورة واسعة خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر[68]. وبما أن معظم المنسوجات الأوروبية كانت غير حريرية، كان إنتاجها ذا أثر مضاعف على صناعة الحرير الإيبرية. فهي لم تنافس الطلب على الحرير الأندلسي وحسب بل إن مشاغل الحياكة الشمالية رغبت في الصوف الخام، وكذلك الكتان والقطن اكثر من الحرير الخام.

وفي أواخر العصور الوسطى بدلت المراكز الرئيسة لإنتاج النسيج والتجارة من أسواق الأندلس إلى شمال شبه الجزيرة. وفي الوقت نفسه كانت غالبية الأنسجة المتوافرة في أسواق إيبريا مصنوعة من الصوف وألياف أخرى أكثر مما هو مصنوع من الحرير[69]. ومن خلال تحليل المراجع عن النسيج

---

(67) James I, Documentos de Jaime I de Aragon. ed. A. Huici Miranda, Valencia, 1976; Sendra Cendra, Aranceles, pp. 30-1. See also Fori antiqui valentiae, CXLIV. 14, p. 286.

(68) The Cortes de Jerez de 1268، مثلاً، تضع أسعاراً للبضائع والكساء المنسوج من المدن في البلدان المنخفضة.

Cortes de antiguos reinos de Leon y Castilla. Madrid, 1861, 1, pp. 65-74.

(69) إن تطور بنية صناعة النسيج الشمالي قد أخذت جهوداً كبيرة من العلماء ولا حاجة لوصفها مطولاً هنا. وحول صناعة النسيج القشتالي ن:

P. Iradiel Murugarren, Evolución de la industria textil castellana en los siglos XIII-XVI. Salamanca, 1974.

وحول الإنتاج الكتلاني والأراجوني انظر: =

في القرن الخامس عشر، تدل وثائق قشتالية على اتجاه التبدلات في الإنتاج والتجارة من الدور الإسلامي إلى الدور المسيحي. ويوجد هناك أكثر من مئة وأربعة أسماء قشتالية للنسيج وأربعة وأربعين تدل على الصوف وثلاثة وثلاثين للحرير وسبعة للكتان واثنين وعشرين لمنسوجات أخرى. وتشمل اللائحة منسوجات قشتالية وغيرها، وتكشف عن شيء من التنوع في المشاغل الغربية التي بقيت منذ الدور الإسلامي، ولعلها شُغِّلتْ في ورشات حياكة منطقة مُدجَر، بينما حَمَلتْ معظم الأصواف المنسوجة أسماء رومنسية[70]. ويبدو أن المسيحيين الإيبريين فضلوا العمل بالصوف.

وقد أثرت التبدلات السكانية في شبه الجزيرة بصورة مخالفة في صناعة الحرير الإيبري، ولما مد السكان المسيحيون جذورهم في المناطق الجنوبية، حملوا معهم مصالحهم الاقتصادية وإمكانياتهم التقنية الخاصة. وفي كثير من الحالات كان هؤلاء المستوطنون لا يتبنون نمط الحياة أو العمل للسكان السابقين، أو أنهم لم يستطيعوا ذلك، مما أدى إلى اختفاء بعض الصناعات وتطور بعضها الآخر[71]. وكذلك فإن إنتاج الحرير وحياكته يرتبطان بالقوة العاملة على نطاق واسع، هذا ولم تتعطّل صناعة غرناطة بسبب هجرة

= M. Gual Camarena, "Origenes y expansión de la industria lanera catalana en la edad media," Atti della seconda settimana di studio, Istituto F. Datini. Florence, 1976, pp. 511-23.

ومقالات أخرى في هذه المجموعة

M. Riu, "The Woollen Industry in Catalonia in the Later Middle Ages," Cloth and Clothing in Medieval Europe. Essays in Memory of Professor E.M. Carus-Wilson. London, 1983, pp. 205-29; E. Ashtor, "Catalan Cloth on the Late Medieval Mediterranean Markets," Journal of European Economic History 17,1988, pp. 227-57; and Sesma Muñoz, "El comercio de exportacion," pp. 219-24.

(70) من أصل ثلاثة وثلاثين هناك ستة عشر اسماً للحرير مشتقاً من العربية، في حين أن ستين لها أسماء رومنسية، وترجمت الأسماء من قبل:

M. Martinez, Los nombres de tejidos en castellano medieval. Granada, 1989.

(71) T. Ruiz, "Expansion et changement: la conquete de Seville et la societe castillane, 1248-1350," Annales: ESC 34,1979, p. 551.

المسلمين إلى بلاد الناصريين إثر الانتصارات المسيحية وحسب، بل بسبب الهجرة المعاصرة للمسلمين من شبه الجزيرة أيضاً.

الصادرات الإيبرية الجديدة

وفيما كان واضحاً انحسار تجارة الحرير الأندلسي، فإن كمية المعلومات عن استمرارية بعض الصادرات الإيبرية، حتى إلى الأسواق الأوروبية الجديدة، يجب ألاّ تحجب التبدلات الحقيقية التي أخذت مكانها مع نسق البضائع الإيبرية. وخلال القرن الرابع عشر، فإن عدداً من المواد التي كانت مجهولة لدى التجار الأندلسيين قد صارت السلعة الرئيسة للصادرات من الممالك الإسبانية المسيحية. ومن المستحيل تقريباً المغالاة في تقدير أهمية هذه السلع، وخاصة الصوف، بالنسبة للاقتصاد الإيبري في أواخر العصور الوسطى.

الصوف

ويوجد نحو مئة سنة من التخلف بين زوال صناعة الحرير الأندلسية وبين ازدهار وتطور التجارة الدولية الكامل في الصوف الإيبري. وحيث أن حرير الأندلس قد توقف عن أن يكون الصادرة الأولى في أوائل القرن الثالث عشر، فإن صناعة الصوف بدأت تتطور في شبه الجزيرة في النصف الثاني من ذلك القرن فقط. وقبل سنة 1253 فإن الطرق الرئيسة canadas من أجل الرعايا قد تأسست، كما أن الدمج الرسمي لـ: Honorable Council of the Mesta of the shepherds castile أي «المجلس الأعلى أو شرف ميستا Mesta لرعاة قشتالة» من قبل ألفونسو العاشر في سنة 1273، ربما يؤكد الضمانات الملكية المبكرة (مفقود الآن) [72]. وكانت كمية قليلة من الصوف

(72) J. Klein, The Mesta: A Study in Spanish Economic History. Cambridge, Mass., 1920, p. 12; J. Hillgarth, The Spanish Kingdoms. Oxford, 1976, pp. 288-9; R. Pastor de Togneri, "La lana en Castilla y León antes de la organización de la Mesta," Atti della prima settimana di Studio, Istituto F. Datini. Florence, 1974, pp. 253-69. =

قد استوردت من انجلترا في سنة 1260 وذكر أمر محلي في بروجس سنة 1304 بيع الصوف الإسباني[73]. وفي وسط القرن الرابع عشر، استقر تصدير الصوف الإيبري، وستسيطر تجارة الصوف على تجارة شبه الجزيرة خلال القرنين القادمين.

وكانت قطعان الأغنام قد تربت في شبه الجزيرة منذ زمن بعيد، وكان الصوف المنتج والمصدر من بيتيكا الرومانية Roman Baetica ذا شهرة واسعة، ولكن التيلة الناعمة الطويلة للصوف الروماني والأندلسي تختلف عن صوف المرينو merino المجعد الذي أصبح فيما بعد الصادرة الإنموذجية لقشتالة. ولعل قطعان المرينو نقلت إلى شبه الجزيرة خلال القرن الثالث عشر، ولكن كلمة مرينو merino لم تظهر في النصوص الإسبانية حتى أوائل القرن الخامس عشر. والاسم مشتق على الأغلب من «بنو مرين» وهي سلالة مغربية خلفت الموحدين في آخر القرن الثاني عشر. وفي كل حال، ليس واضحاً إذا كانت الأغنام قد نقلت إلى الأندلس في الدور الإسلامي أو أنها استوردت من قِبَل الحكام المسيحيين المتأخرين، أو أنها (كما يعتقد لوبز Lopez)، أُدخلت عن طريق شمال أفريقيا إلى شبه الجزيرة في القرن الرابع عشر من قبل الوسطاء الجنويين الذين أملوا في اقامة مصدر إيبري ثابت للصوف لإمداد المغازل الإيطالية[74]». ومهما كان الحال فقد تطورت صناعة

= من أجل تحليل جديد عن Mesta ن:

J. Bishko, "Sesenta años después: La Mesta de Julius Klein a la luz de la investigación subsiguente," Historia, Instituciones, Documentos Seville, 8,1981,pp. 9-57.

(73) Childs, Anglo-Castilian Trade, p. 106; Gilliodts-van-Severen, Cartulaire, p. 7.
ربما وصل الصوف الإسباني إلى إنجلترا في القرن الثاني عشر، ومنذ ذلك الوقت وجد هنري الثاني طريقة لمنع هذه التجارة في سنة 1172.

M. Carlé, "Mercaderes en Castella. 1252-1512," Cuadernos de historia de España 21-2, 1954, p. 275.

(74) Klein, Mesta, p. 4; M. Lombard, Les textiles dans le monde musulman du VIIe au XIIe siècle. Paris, 1978, p. 26; R.S. Lopez, "The Origin of the Merino Sheep," Joshua Starr Memorial Volume. New York, 1953, p. 163.

الصوف القشتالية، لأن الأغنام استوردت من شمال أفريقيا وأنتجت أغناماً أخرى محلياً. ورغم ذلك فقد قُدِّر عدد الأغنام في سنة 1467 لدى السكان القشتاليين بـ 2,700,000 رأس وهو ضعف ما كان موجوداً في القرن الثالث عشر[75].

إن انبعاث إنتاج الصوف الإيبري قد تميز بتوجه مثير للاقتصاد في شبه الجزيرة. فمنذ أن تأسست صناعة وتجارة النسيج على الأغنام، وعلى التنقل الفصلي الطويل للقطعان، كان هذا مختلفاً عن نظام عمل العائلة المتحضرة المستقرة وهي مواصفات أعمال تربية دودة الحرير. ويمكن أن يعزى إدخال وتنمية تجارة الصوف ونجاحها في شبه جزيرة إيبريا إلى عدة أسباب متداخلة اولها، المناخ وأرض قشتالة الملائمة لتنقل الأغنام خاصة في زمن الحملات العسكرية التي عطّلت الزراعة في مركز شبه الجزيرة. وثانياً، باعدت الفتوح والتوسع في الأرض في القرن الثالث عشر بين السكان القشتاليين والأراجونيين وتوزعوا من جديد في الأراضي، وكذلك فعل بلاء الطاعون في القرن القادم. ثالثاً، عزز الطلب الأجنبي حركة التجارة وصناعة النسيج كبير or large, growing, etc. في فلندر وفرنسا وإيطاليا التي قدمت أسواقاً جاهزة للصوف الإسباني. وعلى الرغم من أن الصوف الإيبري كان يعتبر عملياً أقل من الأنواع ذات المواصفات العالية من انجلترا، فقد كان مطلوباً من أجل النسيج الأكثر خشونة لأنه في الأزمات الاقتصادية أو الخلاف السياسي يحل محل الصوف الإنجليزي في الأسواق الأوروبية[76].

---

(75) J. O'Callaghan, A History of Medieval Spain. Ithaca, 1975, p. 617.

(76) من أجل دراسة شاملة عن تجارة الصوف ن:

E. Carus-Wilson, "The Woollen Industry," Cambridge Economic History of Europe. Cambridge, 1952 and 2nd edn 1987, and collection edited by M. Spallanzani, Produzione commercio e consumo dei panni di lana nei secoli XII-XVIII. Atti della seconda settimana di studio, Istituto F. Datini. Florence, 1976.

= حول الصوف الايبري ونقله انظر: Iradiel Murugarren, Evolución; C.R. Phillips,

الحديد

وقبل هبة التطور لصناعة الصوف الإيبري، كان الحديد منافساً للصوف كصادرة إيبرية مهمة وجديدة، لأنه كان متوافراً دائماً في شبه الجزيرة، ولكنه لم يستغل ولم يصدر قبل أخر القرن الثاني عشر. إن نمو تقنية صناعة الحديد واستخدام أوروبا له خلال أواسط العصور الوسطى، مع تزايد التطبيقات الحربية والبحرية والزراعية، كان من الأسباب التي حركت الطلب الجديد على الحديد في الوقت الذي بدأت فيه شبه الجزيرة تظهر كوحدة اقتصادية في مجال تجارة شمال أوروبا. لقد كان السلاح وتجهيزات المراكب والخيول والأحذية والنصال والمحاريث الثقيلة وآلات أخرى، تتطلب كميات كبيرة من الحديد واستطاعت المناجم القشتالية والتجار تلبية هذه الحاجات.

لقد كتب الجغرافيون العرب عن مناجم الحديد في شبه الجزيرة . في سالت Saltes وجوديكس Guadix، وهيوسكا/ وشقه Huesca وفي أماكن أخرى ولاحظوا أنه، بسبب الاستخدامات البحرية كان شغل الحديد «صناعة [مألوفة في] المرافئ حيث ترسو المراكب،» وعلى الرغم من أن الحميري حذر من أنها «صناعة شاقة ومن شأنها إضعاف الناس المحليين»[77]. فإننا لا نجد هناك معلومات عن صادرات الأندلس من الحديد، وهو صمت يمكن أن يعزى إما إلى قلة التجارة، بسبب بطء تطور تقنية الحديد، أو إلى كره

= "The Spanish Wool Trade, 1500-1780," Journal of Economic History 42,1982, pp. 775-95; and C.R. Phillips, "Spanish Merchants and the Wool Trade in the 16th Century," Sixteenth Century Journal 14,1983, pp. 259-82.

إنني أشكر T. Ruiz لسماحه بقراءة وتصوير الفصل الثامن من دراسته:

Crisis and Continuity: Land and Town in Late Medieval Castile, Philadelphia, 1994.

وكذلك فإنني مَدينة لـ W.D.Phillips & C.R.Phillips لنصائحهما حول نقل الصوف وسماحهما بقراءة وتصوير الفصل التالي من مؤلفهما القادم حول: Spain's Golden Fleece .

(77) حول شغل الحرير الإسلامي ن: Himyari, Peninsule, p. 110. A. Y. Hassan, "Iron and Steel Technology in mediaeval Arabic Sources," Journal for the History of Arabic Science 2,1978, pp. 31-43.

التوثيق في المواد الحربية. وعندما ذكر الزهري صادرات الحديد الأسود المستعمل في صناعة «آلات الحرب» في آخر القرن الثاني عشر، كان المقصود بالوصف برشلونة (التي وقعت في أيدي المسيحيين) [78]. وكانت موانئ قشتالة على شواطئ باي بيزكاي، وكذلك موانئ كتلونيا ظهرت كمراكز لتصدير الحديد في القرن الثالث عشر، وسوف تسيطر هذه الصناعة على الرغم من ظهور تجارة الصوف. وخلال أواخر القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر شُحن الحديد الإيبري نحو الشمال إلى موانئ إنجلترا وفلندر، حيث ذكر وصوله بوفرة في وثائق متنوعة[79].

النبيذ

ومن خلال تحريم القضاة للخمرة، ومدح الشعراء لها نكتشف أن الخمرة كانت متوافرة في الأندلس، إلا أنه لم يعترف بها إطلاقاً كسلعة أو صادرة. وقد توقف هذا الحال في عهد الحكم المسيحي عندما كان النبيذ

---

(78) Zuhri, "Kitâb al-djarafiyya" ed. M. Hadj-Sadok, Bulletin des études orientales 21,1968, p. 203.

الزهري، كتاب الجغرافيا.

(79) حول الحديد الإيبري في فلندر انظر:

Finot, Etude, p. 303 and Rorig, The Medieval Town, p. 81.

توجد مساءلة حول نقل الحديد إلى إنجلترا في

Childs, Anglo-Castilian Trade, pp. 112-19; also Salzman, English Trade, pp. 408-10, 414; Carus-Wilson, Overseas Trade, p. 63; T. Ruiz, "Castilian Merchants in England, 1248-1350," in Order and Innovation in the Middle Ages: Essays in Honor of Joseph R. Strayer. Princeton, 1976, pp. 181-82; C.C.R. 1288-96, p. 365, 1346-9, p. 213; C.P.R. 1307-13, pp. 246-7, 1340-3, p. 364; Arnold, The Customs of London, p. 190.

حول المتوسط انظر:

R. Sprandel, "Le commerce du fer en Méditerranée orientale au moyen âge," Sociétés et compagnies de commerce en orient et dans l'Océan indien. Paris, 1970, pp. 387-92. Also on Iberian iron: T. Glick, Islamic and Christian Spain. Princeton, 1979, p. 134; T. Ruiz, "Burgos y el comercio castellano en la baja edad media," La ciudad de Burgos. Actas del congreso de historia de Burgos. Madrid, 1985, p. 48; and Hillgarth, The Spanish Kingdoms, p. 40.

الإيبري (من الأندلس أو المناطق الشمالية) ينتج علناً، ويرسل إلى أسواق البحر الأبيض المتوسط وشمال أوروبا، وكما هي الحال بالنسبة للبضائع الإيبرية الأخرى واجه النبيذ الإسباني منافسة جادة من إنتاج مناطق أوروبا.

من جهة أخرى إن النبيذ الإيبري الذي وصل إلى انجلترا مثلاً، لم يكن قط يعتبر من صنف منافسه الفرنسي وبالنتيجة فإن هذه المسكرات القوية كانت أرخص من الخمور المعتقة من بوردو Bordeaux. وقد سخر ذات مرة شوسر بردونر Chaucer's Pardoner من ممارسة الغش بخلط النبيذ الفرنسي الممتاز مع ذلك القوي الأرخص الإسباني[80]! هذا لا يعني أن النبيذ الإسباني كان جميعه من نوع واحد، فقد وصل مركب إلى بريستول في سنة 1474 وكان لدى الغاليين شحنات من النبيذ الطيب والثقيل، ولعل الأول من الأندلس، والأخير من منطقة ريوجا Rioja[81].

لقد كان النبيذ الإسباني متوافراً في إنجلترا في سنة 1228، عندما جاءت شحنة نبيذ وبضاعة أخرى إلى جريمسبي Grimsby، وذكر الخمر في عنابر مركب إسباني سيء الحظ هوجم قرب سندويتش في السنة نفسها[82]. واستمر وصول كميات قليلة من النبيذ الإسباني إلى موانئ إنجلترا خلال القرن القادم، ولكن بمنافسة مع نبيذ من جسكوني Gascony. وقد ربح النبيذ الإيبري موطئ قدم في أسواق إنجلترا بعد سنة 1453 فقط عندما سيطر الفرنسيون على بوردو وانخفض دون أن ينقطع من مستوردات خمر جسكون[83]. وقد شق النبيذ الإسباني والبرتغالي طريقهما إلى أسواق في

---

(80) Chaucer, "The Pardoner's Tale," line 237, p. 415.

(81) Ferreira Priegue, "El papel de Galicia," p. 246.

(82) C.C.R. 1227-31, pp. 71, 89.

(83) C.C.R. 1346-49, p. 213.

يقدم مثالاً عن النبيذ الإسباني المستورد إلى ساوث أمبتون في سنة 1347 وهي وثائق جمعت من قبل E. Carus-Wilson وتظهر النبيذ الإيبري في بريستول سنة 1434 . Overseas Trade of Bristol, p. 63. وحول تجارة النبيذ انظر أيضاً:

M. James, Studies in the medieval Wine Trade, Oxford, 1971, pp. 29, 84; Salzman, English Trade, p. 401; and Childs, Anglo-Castilian Trade, pp. 126-36.

البلدان المنخفضة وإيطاليا خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر[84].

الشب

كان الشب مثل النبيذ ينتج في شبه الجزيرة خلال العهد العربي، إلا أن تجارته الدولية تطورت في ظل الحكم المسيحي فقط[85]. وعلى الرغم من أن كثيراً من المناطق الإيبرية التي أنتجت الشب كانت تحت سيطرة المسلمين، إلا أن تجارته لم تذكر في المصادر العربية قبل القرن الثالث عشر عندما أشار السقطي باختصار إلى الشب الأندلسي. لأن هذه المادة اللاذعة كانت عاملاً حاسماً في صناعة النسيج والجلد، حتى إنتاج المناجم من النوع الثاني (وهي صنف شب إيبريا) كان يجد سوقاً عندما تقصر المصادر الجيدة. وكان الشب الممتاز متوافراً في آسيا الصغرى، حيث كانت تجارته محتكرة من قبل البندقيين والجنويين بالتناوب، واكتشف مصادر جيدة للشب في القرن الخامس عشر في تولفا Tolfa في دولة البابا ولكن إنتاجها لم يكن متوافراً دائماً. وبالرغم من رداءة الشب الإيبري إلا أنه نقل إلى أوروبا مع تزايد طلب الصناعات الأوروبية عليه.

وتذكر المصادر اللاتينية نقل الشب القشتالي إلى غرب المتوسط اعتباراً من وسط القرن الثاني عشر عندما ذكرت لائحة مكوس من ناربون Narbonne في سنة 1153 شب قشتالة Castelha، وظهرت كذلك عقود معاصرة جنوية[86]. وفي القرن التالي ذكر كتاب العدل الجنويون شباً قشتالياً، وكذلك كتاب العقود في پيزا وناربون ومرسيليا، وذكر بيجولوتي فيما بعد

---

(84) Finot, Etude, p. 303; Pegolotti, Pratica, p. 125.

(85) Ibn al-Shabbat, "Un fragmento de la obra de Ibn al-Sabbat s.XIII sobre al-Andalus" trans. E. de Santiago Simon, Cuadernos de historia del Islam 1973, pp. 23-4.

(86) M.G. Mouynes, Inventaire des archives communales. Ville de Narbonne. Narbonne, 1871, p. 4; Giovanni Scriba, Cartolare di Giovanni Scriba. eds. M. Chiaudano and M. Moresco, Rome, 1935, I, p. 101, #193; II, pp. 203-5, #1212.

شب قشتالة في سجله الكبير عن المواد التجارية[87]. كما وجد شب قشتالة ومالوركا طريقهما إلى مدن شمال أوروبا بما فيها بروجس وسندويتش وساوث أمبتون خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر[88].

سلع أخرى

كان العسل والسكر والملح والحبوب وغيرها من المواد قد ذكرت بين صادرات إيبريا في هذا العصر على الرغم من مواجهتها المنافسة من قبل منتجات المناطق الأخرى. وكما هي الحال بالنسبة للشب، فإن بعضها كان متوافراً في الأندلس قبل القرن الثالث عشر ولكنها تطورت كصادرات داخل مجال التجارة المسيحية فقط. وخلال القرن الرابع عشر، وصلت كمية كبيرة من العسل إلى موانئ أنجلترا وفنلندا محمولة على ظهر مراكب إسبانية وبرتغالية، كما بيع السكر من ملقا الناصرية في بروجس نحو سنة 1300[89]. وفيما بعد وثقت محفوظات داتيني Datini انتقال سكر ملقا إلى أسواق غرب المتوسط[90]. كما كانت إسبانيا المسيحية مصدرة للسكر خلال أول القرن

---

(87) ASG Div. 5v 1179; ASG Cart. 5, 60r, 1213; D. Herlihy, Pisa in the Early Renaissance. New Haven, 1958, p. 31; Mouynès, Inventaire, II, cxxix, p. 207; L. Blancard, ed., Documents inédits sur le commerce de Marseille au moyen âge. Marseille, 1884-5, II, p. 11, 1248; Pegolotti, Pratica, p. 293.

(88) Finot, Etude, p. 304; Gilliodts-van-Severen, Cartulaire, p. 16; Salzman, English Trade, p. 411; Childs, Anglo-Castilian Trade, pp. 108-9; Ferreira, "El papel de Galicia," p. 245.

(89) C.C.R. 1333-7, p. 644, 1337-9, p. 85; C.F.R. 1337-47, p. 5; C.P.R. 1350-4، تشير الوثيقة الأخيرة إلى أن العسل كان يقصد شحنه إلى بروجس، حيث أن لوائح التعرفة الأبكر كذلك أشارت إلى تجارة العسل الإسباني في فلندر انظر أيضاً Finot, Etude, p. 303.

Salzman, English Trade, p. 411, Childs, Anglo-Castilian trade, pp. 124-5.

C. Verlinden, "From the Mediterranean to the Atlantic: Aspects السكر في بروجس of an Economic Shift," Journal of European Economic History 1,1972, pp. 636-9.

وذكر Arnold's Customs of London اللندني سكراً من البرتغال ص234.

(90) Melis, I trasporti, p. 58.

الرابع عشر وأدخلت زراعته إلى الجَرف Algarve ومناطق أخرى، ولكن تصدير السكر من شبه الجزيرة تقهقر في القرن التالي بسبب منافسة سكر منتج في جزر الكناري[91]. صدرت إيبريا المسيحية بعض كميات الملح الصخري والبحري إلى أسواق في البحر المتوسط وأوروبا إلى جانب الشمع والصابون والوَدَكِ (الشحم الحيواني) والرز وسلع أخرى[92]. وكانت تجارة الحبوب أكثر تعقيداً وتتنوع موادها حسب أوقات العجز والنقص أو الوفرة. وعلى الرغم من أن شمال شبه الجزيرة كان منتجاً رئيساً للحبوب، فإن الأندلس وغرناطة كانا يجدان أنهما في عجز أكثر من وفرة.

الاستمرارية والتحريم

لم تكن جميع صادرات إيبريا في أواخر العصور الوسطى مستمرة أو جديدة الظهور. وقد اختفى عدد من الصادرات في المرحلة المبكرة من التجارة في وسط القرن الثالث عشر، في حين تقهقرت أخرى أمام المزيد من صرامة الحكومات وتشدّدها.

---

(91) A. Mackay, Spain in the Middle Ages, From Frontier to Empire, 1000-1500. London, 1977, p. 172; Gual Camerena, "Peaje," p. 187.

(92) حول تجارة الملح انظر: See M. Mollat, ed., Le rôle du sel dans l'histore. Paris, 1968 وخاصة مقال by V. Rau and J. Heers; J.-C. Hocquet, Le sel et la fortune de Venise. vol. II, Voiliers et commerce en Méditerranée, 1200-1650. Lille, 1979; A.R. Bridbury, England and the Salt Trade in the Later Middle Ages. Oxford, 1955; M. Gual Camarena, "Para un mapa de la sal hispana en la edad media," Homenaje a Jaime Vicens Vives. Barcelona, 1965-7,1,pp. 483-97; and A. Malpica Cuello, "Regimen fiscal y actividad ecónomica de las salinas del reino de Granada," Actas del II Coloquio de historia medieval andaluza: Hacienda y comercio. Sevilla, 8-10 de Abril, 1981. Seville, 1982, pp. 393-403.

حول الصابون والشحم والشمع انظر:

Pegolotti, Pratica, p. 293; Finot, Etude, p. 303; Gilliodts-van-Severen, Cartulaire, p. 15; C.C.R. 1288-96, p. 365; Arnold, Customs of London, p. 235; Childs, Anglo-Castilian Trade, pp. 111,141; Salzman, English Trade, pp. 410-11.

حول الأرز : Pegolotti, Pratica, 296; Finot, Etude, pp. 303-4; Melis, I trasporti, pp. 54, 67; Salzman, English Trade, p. 411.

وكما نوهنا في بداية الفصل، فإن بعض الانقطاع يمكن أن يُفسر بتبدل الدور التجاري لشبه الجزيرة في عالم المتوسط الواسع ولم تعد أسواق الأندلس تعمل كمخزن تجاري على حدود العالم الإسلامي الغربية، فقد ذهب كثير من التجار إلى أماكن أخرى من أجل مشترياتهم. وفي نهاية القرن الثالث عشر، حصل الجنويون على الذهب من موانئ المغرب وتطلع تجار الرقيق المصريون إلى مصادر من آسيا الوسطى. وفي الوقت نفسه، فكر الحكام الإسبان المسيحيون بالتشريعات المتعلقة بصادرات مملكتهم اكثر من سابقيهم الأندلسيين. وقد منعت تجارة بعض المواد، ليس لمجرد المنع الديني أو الحربي، وإنما على قاعدة عدم هدر المصادر النادرة أو القيمة في المملكة.

الرقيـق

ولم يعد الرقيق المسيحي المرتبط بالبلاد الإسلامية مسموحاً للتصدير من الأسواق المسيحية الجديدة في شبه الجزيرة، ولكن أخذ مكانهم مسلمون أرسلوا للبيع في جنوب أوروبا. ويعكس هذا التبدل حقيقة رواج تجارة الرقيق خلال عالم البحر الأبيض المتوسط المسيحي والمسلم في العصر الوسيط. وكان الأندلس قد وزع في الماضي الرقيق المسيحي والوثني إلى مناطق أخرى من العالم الإسلامي. وفي وسط القرن الثالث عشر، فإن عدداً من الرقيق المسلم بدأ يظهر للبيع في مدن مسيحية، وأحياناً في المدينة نفسها التي كانوا فيها مواطنين أحراراً. وعلى الرغم من وجود رقيق عربي في البلاد المسيحية الإسبانية وأوروبا خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر إلا أن الرقيق المسلم في القرن الثالث عشر يُعزى مباشرة إلى الانتصارات المسيحية في بلاد المسلمين.

وقد ظهر هذا الاتجاه بوضوح خاص في وسط مشاكل إيبريا، على الرغم من أن أفضل البراهين على تصدير المسلمين الأندلسيين (كرقيق) يأتي من وثائق بيوع الرقيق في جنوب فرنسا وموانئ مدن إيطاليا. وتذكر وثائق

العدليين عادة أن الرقيق كان مسلماً، مسمين إياهم إما سرازن Sarracenus (أي أبناء سارة ـ المترجم) أو مور Maurus (أي المراكشيون أي العرب ـ المترجم). أو أن بعض الرقيق الجديد يدعى باسمه المسلم. وهناك بعض العقود التي تذكر مدينة أو منطقة أصل الرقيق وكذلك الجنس (ذكر أو انثى). وقد قدمت وثائق كتاب العدل الجنويين مجموعة من أسماء رقيق بيع في هذه المدينة في القرن الثالث عشر. ولا تشير جميع هذه البيوع إلى الرقيق الأندلسي، ولكن العقود الإسبانية مهمة خاصة بعد أن ظهر وجود علاقة بين الانتصارات المسيحية الحربية وتاريخ هذه البيوع. وبالتأكيد ليس مصادفة، مثلاً أنه تبعاً لفتح بلنسيا من قبل جيمس الأول صاحب أراجون في سنة 1238، سجل العدليون الجنويون كثيراً من بيوع الرقيق المسلم البلنسي في سنة 1239[93].

وقد قدمت الوثائق المدنية الإيبرية ادلة على بيع الرقيق المسلم في آخر القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وقد سجل الفيورو سنة 1166 لمدينة إيفورا Evora مثلاً ضريبة سوليدوس واحد على التجار لكل «مور مباع في السوق». وكانت هذه العبارة تتكرر كثيراً في عقود وامتيازات ذلك الدور[94]. لقد كان الرقيق المسلم صادرة مهمة من قبل مملكة أراجون في عهد جيمس الأول 1213 ـ 1276 عندما كانت تجارتهم موضوع رخصة حكومية وقيود أخرى[95].

---

(93) انظر مقالتي:

"Muslim Spain and Mediterranean Slavery: The Medieval Slave Trade as an Aspect of Muslim-Christian Relations." Christendom and its Discontents ed. S. Waugh, Berkeley, 1996 pp. 264-84.

(94) Portugaliae monumenta historica: leges consuetudines. Lisbon, 1856, I, p. 393. also pp. 407, 412, 416, 419, 427, 431, 475, 488, 495, 196, 513. On Castilian and Catalan references, see C. Verlinden, "L'origine de sclavus-esclave," Bulletin Du Cange: Archivum latintatis medii aevi 17,1942, pp. 116-7.

(95) R. Burns, Islam under the Crusaders: Colonial Survival in the thirteenth century Kingdom of Valencia, Princeton, 1973, p. 111.

وكما كان الحال مع لوائح التعرفة، فإن امتيازات منحت إلى مدينتيْ كتلانيا وأراجون (بما في ذلك Lezda ليزدا 1238 وبلنسيا) التي ذكرت ضرائب جمعت على بيع رقيق مسلم في المدينة[96]. وتشهد عقود عدلية كتلانية على تجارة الرقيق، فهذا تاجر أرسل أمَةً لبيعها في صقلية في سنة 1238 وآخر أرسل سبعة من الرقيق إلى صليبيي فلسطين في سنة 1252[97].

ويبدو أن بيع المسلمين الأندلسيين في البحر الأبيض المتوسط المسيحي قد تضاءل في آخر القرن الثالث عشر، حيث أن مجتمع إيبريا قد أنهى مرحلة جديدة ثابتة، وتطلع التجار إلى مصادر أخرى للرقيق. ولكن الثروات الأولى التي جنيت من الرقيق وتصديره قدمت مصدر قوة جديدة للمدن الإسبانية المسيحية الجديدة وإلى التجار الذين نقلوا التجارة إلى أسواقهم.

الخيـل

لقد فُرض على تصدير الخيول من شبه الجزيرة تقييد شديد لم يكن كذلك على تصدير الكائنات الإنسانية. فقد كان الحكام المسيحيون، خلال العصور الوسطى، مهتمين بذلك مخافة أن تقع السلعة الحربية في أيدي الأعداء المسلمين أو المسيحيين. بينما أبدى الحكام الأندلسيون اهتماماً أقل بتجارة الخيول، ولعل سبب ذلك أنها لم تكن صادرة مهمة من بلادهم[98]. ولعل التجارة الدولية للخيول عبرحدود إيبريا كانت سهلة في الدور الباكر، قبل فتح المسيحيين لطليطلة وانطلاق الصليبيين إلى فلسطين ما زاد العداوة

---

(96) Fori antiqui valentiae, p. 287.

(97) J. Madurell and A. Garcia, Comandes comerciales barcelonesas de la baja edad media. Barcelona, 1973, pp. 151-4, documents 2 and 5.

(98) الخيول والبغال الإسبانية *equos et mulos Hispanos* المرسلة من قبل شارلمان إلى فارس ربما كانت حيوانات نقلت من شبه جزيرة إيبريا. أو أنها نسلت في إسبانيا على الأقل.

Notker the Stammerer, de Carolo Magno. ed. P. Jaffe, Monumenta carolina, IV, Bibliotheca rerum gemanicarum, Berlin, 1867, P. 677.

المسيحية الإسلامية. على سبيل المثال، لقد فرض فيورو مدينة سيبولفيدا Sepulveda سنة 1076 تعرفة على الخيول وحيوانات الركوب الاخرى المنقولة إلى بلاد المسلمين، ولكنه لم يمنعها[99]. ولكن مع بداية القرن الثالث عشر، كرر الملوك الإسبان بانتظام منع تصدير الخيول من ممالكهم، معللين أحياناً هذه القيود بعوامل خارجية وهي الخوف من أن تقع هذه الخيول في أيدي العدو. وأحياناً يكون المنع لأسباب محلية حيث أن الخيول (حاجات خاصة بالملك وجيشه واستعماله الشخصي)[100]. وكما هي الحال بالنسبة للممنوعات، فهي بحد ذاتها محرض على التجارة. وكان الخرق والتجاور أمرين مألوفين. ففي بلاط طليطلة سنة 1207 مثلاً، منع ألفونسو الثامن صاحب قشتالة تجارة الخيل والبغال والحمير وغير ذلك من الحيوانات المشابهة إلى بلاد المسلمين أولاً، ثم سمح بتجارتها طالما لا يوجد فيها خيول الحرب الفَرَس والسروج Cavallo o egua con albarda[101]. وهناك وثيقة من بلنسيا مؤرخة في 1238 و1246 أكثر واقعية، وتفرض ضريبة على «الخيول [و] البغال.. التي تدخل بلاد العرب Saracen لأغراض التجارة»[102]، وسمح بلاط بُورجُس Burgos لبعض الخيول العربية Cavallos

---

(99) Los Fueros de Sepulveda. ed. E. Saez, Segovia, 1953, P.223.

(100) تكرر المنع في الوثائق التالية: Jerez 1268, Burgos 1338, Valladolid 1351, وكذلك في Cortes de los antiguos reinos de Leon y Castilla. Madrid, 1861. I, PP. 71, 450; II, P.25.

cosas vedadas in J. O'Callaghan, The Cortes of Castile-Leon, PP. وانظر مناقشة .189-91.

وقد منع القضاة المسلمون في ذلك الوقت بيع الخيل ومواد أخرى للمسيحيين، انظر:

Ibn Juzayy (d.1340), Qawanin al-ahkam. Beirut, 1968, P.319.

(101) Hernández, "Cortes de Toledo." pp.234-5: 245.

(102) Fori antiqui valentiae, CXLIV.4, p. 284; p.284; James I, Documentos, II, pp. 167-70. See also R.I. Burns. "Renegades, Adventurers, and Sharp Businessmen: The 13th century Spaniards in the Cause of Islam." Catholic Historical Review 58, 1972, p.363/ It is possible that *terram sarracenorum* referred to North Africa.

بأن تنقل خارج المملكة (بإستثناء بلاد المسلمين) مقابل رسوم تدفع للتاجر[103]. وفي النهاية، سواء دعم الحكام المحليون تصديرها أم لا، فقد كانت الخيول الإيبرية تجد طريقاً إلى المشترين الأجانب وذكرت في وثائق التجارة الأوروبية الشمالية خلال أواخر العصور الوسطى[104].

الأخشاب

وإلى جانب تحريم تجارة الحيوانات، حاول العواهل الإيبريون احتكار تجارة الأخشاب. وللمرة الثانية، فإن احتمال الحرب هو سبب الاهتمام عامة. ففي بلاط فالادوليد Valladolid بيَّن بيتر الأول Peter صاحب قشتالة أن تصدير الأخشاب غير مقبول لسببين أولهما: تعرية هضاب المملكة، وثانيهما أنه إذا ذهب الخشب المحلي لبناء سفن العواهل الأجانب، فلا يبقى ما يسمح ببناء أسطول الملك نفسه[105]. وفي بعض الحالات، كان المنع الملكي صدى لتحريم البابا بالنسبة لتجارة الخشب المسيحي إلى بلاد المسلمين، ففي سنة 1237 مثلاً، أقر جورج التاسع أنه لا يجوز للتجار الكتلانيين من تراجونا Tarragona أن يبيعوا الخشب للسفن Lignamina Galearum إلى المسلمين في باليريك. وهناك فتاوى مشابهة أصدرها البابوات المتأخرون ولم تكن مخصصة لكتالونيا فقط[106].

---

(103) Cortes de los antiguos reinos de Leon y Castilla. I, p. 487.

(104) Childs, Anglo-Castilian Trade, pp. 120-2; Ruiz, "Castilian merchants," pp. 181-2; Y. Renouard, "Un sujet de recherches: L'exportation des chevaux de la péninsule ibérique en France et en Angleterre au moyen âge," Homenaje a Jaime Vicens Vives. Barcelona, 1965, 1, pp. 571-7.

(105) Cortes de los antiguos reinos de Leon y Castilla, II, pp. 22-3. The king conceded that merchants in Galicia and Asturias might continue trafficking in timber according to their usual custom.

(106) Gregory IX, Les registres de Gregoire IX. ed. L. Auvray, Paris, 1896-1919, II, p. 554, #3491. See also Corpus iuris canonici. ed.E. Friedberg, Leipzig, 1879-81, II, 5.6.6 p. 774; and Regesta pontificum romanorum. ed. A. Potthast, Berlin, 1874-5, p. 1653, no. 20522. These prohibitions, and other papal restrictions on trade with Muslims, are discussed by J. Muldoon. Popes, Lawyers, and Infidels. Philadelphia, 1979, pp. 52-4.

لقد أثرت التبدلات في تجارة الأخشاب الإيبرية بصورة عميقة على مجرى التطور التجاري والبحري (بناء الأساطيل) في غرب البحر الأبيض المتوسط خلال العصور الوسطى، وقبل القرن الثالث عشر، كان الأندلس يمتلك خشباً لسد حاجاته وللتصدير لبقية بلاد العالم الإسلامي. وبإعتبار أن شبه جزيرة إيبريا قدمت الكثير من الأخشاب لأحواض بناء السفن في شمال أفريقيا حتى شرق المتوسط، فإن سيطرة المسيحيين على غابات الأندلس في كتلونيا خلال القرن الحادي عشر، وباليريك الجراف في أول القرن التالي، كان لها أثر مهم على توازن قوة الشحن البحري للمسيحيين والمسلمين. وفي الواقع أن بعض الحملات المسيحية كالهجوم المشترك ما بين كتالونيا وپيزا وجنوى على طرطوشة Tartosa في سنتي 1092 و1147 كان يهدف إلى السيطرة على غابات المنطقة. فعندما تصبح الأخشاب تحت سيطرة حكام إسبانيا المسيحيين فبإمكانهم توسيع اسطولهم وتوفير اللازم لبناء المراكب التجارية الجديدة للكتلانيين والقشتاليين. ومن جهة أخرى، إذا حلت المنفعة قبل التحريم، فذلك لأن الحكام والتجار قد يبيعون الخشب المحلي للمسلمين وغير المسلمين (وهو مسرحية يشهد عليها تكرار ذكر التحريم). وفي أي حال بعد أن خسر المسلمون إمكانية الوصول إلى أخشاب إيبريا بعد حصول المسيحيين على غابات الأندلس، تعزز الخلل في ميزان قوة الأساطيل في البحر المتوسط في أواخر العصور الوسطى.

ولم تؤثر التحريمات الملكية على تصدير بعض السلع في أواخر العصور الوسطى على التجارة الدولية الإيبرية وحسب، بل أثرت على الموقف الرسمي تجاه التجارة.

فالحكام الأندلسيون نادراً ما تدخلوا في الشحنات التجارية إلا بقدر ما يمثل ذلك من مصدر لثروة خزينة الحكومة، على الرغم من أن بعض السلع مثل النبيذ والرقيق المسلم ممنوعة بصورة آلية من قبل السلطات الدينية. من جهة أخرى، فإن الحكام المسيحيين أظهروا اهتماماً أكبر تجاه اقتصاد ممالكهم بصورة عامة، كما أبقوا عيونهم مفتوحة على فرص تحقيق الربح.

وهناك عدد من التفسيرات لهذا التبدل، بما في ذلك النمو الضخم على الحدود الدولية وادراك مفهوم «الدولة» في هذا العصر، كل ذلك مع التوجه الجديد الإيبري نحو الشمال. ولم يكن المنع أو تحريم المبادلات لبعض المواد مجرد محاولة للاحتفاظ بالمواد الاحترابية كي لا تصل إلى يد المسلمين أو أية يد معادية، فقد كانت الامتيازات الممنوحة للتجار المحليين والتحريمات تمثل غالباً اتجاهاً ملكياً (غير واقعي) لاحتكار التجارة في ممالكهم ولخلق تمييز قانوني بين مملكة مسيحية وأخرى.

وعندما ننظر إلى مجموعة المعلومات من أواخر العصور الوسطى المتعلقة بالتبدلات واستمرار التصدير الإيبري، وإلى التدخل الملكي في التجارة نرى انبعاث شبه الجزيرة كنجم جنوبي في مجال سياسي أوروبي شمالي. فقد ظل جزءاً من عالم اقتصاد المتوسط، ولكن الأسواق الإيبرية والصادرات لم يعد لهما دور، ولم يستطيعا القيام بالدور نفسه الذي كان يقوم به الأندلسيون السالفون.